مقدمة

المقدمـــــــة

هدف الباحث من درس عناصر الإبداع الفنى فى شعر ابن خفاجة، هو التعرف على الخصائص المميزة لبعض العلاقات اللغوية داخل النص. والتى تشكل سمات أسلوبية فيه وخصائص ينفرد بها عن غيره من النصوص.

ومن ثَمّ التعرف على الخصائص المميزة لأسلوب ابن خفاجة فى إبداعه، من خلال تعامله "المميز" مع عناصر الأداء الفنى، تلك الخصائص التى تشكل سمات مميزة له ـ مبدعا ـ يتفرد بها ويُعرف من بين المبدعين.

وبعد ذلك التعرف على فن ابن خفاجة وطريقته فى خلق التفاعل المتكامل بين العناصر الإبداعية داخل النص، بما يحقق تفاعلا بين الشكل والمضمون، يثرى التجربة ككل ويضاعف شحنات الايحاء ويكثفها، بحيث تتفاعل عناصر النص جميعا لتجسيد الموقف أمام المتلقى فتستنفد لديه كل طاقة للتجاوب مع التجربة والتأثر الوجدانى بها. وهذه الطريقة فى خلق التفاعل تضيف سمة أسلوبية أخرى يتفرد بها النص ومبدعه.

وبما أن النص الأدبى عبارة عن نظام من الرموز اللغوية (١) تقوم بينها علاقات متشابكة ومعقدة غاية التعقيد، لا سبيل إلى كشفها سوى المادة اللغوية ذاتها فقد اعتمد الباحث على منهج نقدى ينطلق من لغة النص أولا، ويحاول فهمه وكشف أسرار علاقاته الدقيقة وهو التناول الأسلوبى الذى " ينصب على اللغة الأدبية لأنها تمثل التنوع الفردى المتميز فى الأداء بما فيه من وعى واختيار، وبما فيه من انحراف عن المستوى العادى المألوف، بخلاف اللغة العادية التى تتميز بالتلقائية والتى يتبادلها الأفراد بشكل دائم وغير متميز " (٢)

فالاسلوبية ـ فيما يرى الباحث ـ تحقق أهداف البحث كاملة، لأنها تتناول أسلوب النص الأدبى، وتركز عليه وتنطلق منه " تتبع ما فيه من قيم تعبيرية وخصائص لغوية تبرزها، لتكشف عن القيمة الجمالية، والنظام الذى يحكم العناصر أو الأجزاء اللغوية داخله " (٣) ومن ثم الوصول منها إلى أعماق فكر المبدع.

ومن هنا يستمرئ الباحث أن يسير مع الأسلوبية " فى عملية اختيار وانتقاء لأهم الظواهر الأسلوبية البارزة فى النص ـ الخفاجى ـ التى ترى أنها تلعب دورا أساسيا فى تشكيل أسلوب المؤلف ثم تقوم بوصفها وتحليلها ومعرفة الوظيفة الأدبية التى تؤديها داخل العمل الأدبى.

---

١ ـ راجع: أحمد درويش: دراسة الاسلوب بين المعاصرة والتراث، مكتبة الزهراء، القاهرة. ص ١٧٢.

٢ ـ راجع د. محمد عبد المطلب: بين البلاغة والاسلوبية، الهيئة المصرية العامة ص ١٤٦.

٣ ـ نفسه: ص ١٢٣.

ولكى لايكون الاختيار عشوائيا أو غير مستند على أسس علمية فإنها تلجأ إلى المنهج الإحصائى للكشف عن نسبة تردد الظاهرة وأهميتها فى إنتاج الدلالة " (١)

لذا تخير الباحث ـ فى الدرس اللغوى ـ عددا من الظواهر الأسلوبية البارزة ، ووصفها وحللها وتعرف على وظيفتها الأدبية ، محاولا كشف مدى ثباتها خاصية فى أسلوب النص وطريقة من طرق الأداء المميزة لمبدعه . ثم بحث فى مدى تلائمها وتوافقها مع غيرها من ظواهر ـ فى الإيقاع والتصوير ـ لتحقيق التكامل داخل النص.

ومن جهة أخرى قام الباحث بصنع إحصاءات لغوية كاملة للديوان ، فصنع معجما لمفردات الديوان وآخر لحروف المعانى فيه ، وأفاد منهما إفادة كبيرة خلال البحث .

والإحصاءات ذاتها تمت وبنفس الدقة ، رصدا للظواهر الإيقاعية داخل النص الخفاجى وللديوان كله نص ـ بدءا من الإيقاع الكلى العام ممثلا فى الوزن العروضى والجسر الصوتى الموحد على ضفة كل بيت شعرى فى القافية ، وانتهاء بأدق عناصر الإيقاع داخل الألفاظ وهو الصوت المفرد .

والإحصاءات ذاتها أيضا تمت فى العنصر التصويرى ، تتبعا لصور الشاعر بأنماطها ومجالاتها المختلفة ، وطبيعة بنائها بين القصر والطول والامتداد ، وحيويتها بين التقليدية والجدة والجديدة ، ثم دلالاتها الجمالية والنفسية والحضارية والاجتماعية .

فالمنهج الإحصائى " أصبح صاحب اليد الطولى فى مجال الأسلوبيات باعتباره نموذجا للدقة العلمية التى لا تترك مجالا لذاتية الناقد أو الباحث كى تنفذ إلى العمل الأدبى " (٢) ذلك " أن دقة ظهور سمة لغوية فى تعبير أديب معين ، لاتكفى فى إدراكه النظرة العابرة أو الحاسة الذوقية ، بل لابد من الارتكاز على علم الإحصاء الذى يصل الناقد إلى الدقة العلمية المطلوبة " (٣)

وقد وجهت انتقادات كثيرة إلى المنهج الإحصائى ـ الخالص ـ أهمها إحالته لغة الأدب إلى جداول وقوائم ، وإهماله التعبير عن الإحساس والانفعال داخل التركيب ، واهتمامه برصد الكم دون غوص فيما وراء الكيف وغيرها (٤) .

لذلك راعى الباحث أن يهتم بالكيف أكثر من اهتمامه بالكم ، بحثا وراء الكيف عن دوافع وعلل وبالتالى عن قيم جمالية وفنية تضيف إلى النص وتثريه . فكانت استعانته بالإحصاء ـ فقط ـ ليحقق موضوعية البحث ، وعلميته ودقته ، ودقة نتائجه ، عند رصد الخصائص المميزة فى أسلوب الشاعر .

---

١ ـ المرجع السابق : ص ١٢٧ وما بعدها .
٢ ـ نفسه : ص ١٢٨
٣ ـ نفسه : ص ١٤١
٤ ـ نفسه : ص ١٤١ وما بعدها .

كما استعان — إلى جانبه — بكثير من التفسيرات النفسية والاجتماعية التى تلقى على الخاصية بظلالها الموصلة لها ، والكاشفة لأبعادها وعمق تأثيرها الوجدانى فى نبعها الأصيل — الذات المبدعة — وفى وعائها المتجارب — المتلقى — إدراكا منه بأن " أنجح محاولات المنهج الأسلوبى فى تحليل النص الأدبى تلك التى اعتمدت على التوصيف اللغوى بكل أسسه الموضوعية العلمية مستخرجة ما فى النص من شحنه عاطفية تصيفها النية الجمالية عند المبدع ، ولا غرابة فى استخدام منهج موضوعى فى إفراز أشياء غير موضوعية لأن الدارس — فيها — يتقدم وفى يده مادة وفيرة تزكيها رؤيته الذاتية دون إغفال للقيم الجمالية التى تنبع من طبيعة العمل الأدبى ... "(١) فالمنهج الإحصائى ضرورى فى الدرس الأسلوبى ولكن · بحيث ينبع الاحصاء " من طبيعة النص ذاته ، أو من طبيعة أديب معين ، فقد يكون اطراد ظاهرة أسلوبية وتكرارها بشكل ملحوظ ذا دلالة هامة وخطيرة فى النص أو عند الاديب " (٢) ·

ويكون كذلك بقدر ما يعيننا على ضبط الظاهرة المضطردة ، ورصدها بدقة ، ثم يتركنا مع الظاهرة ومع السياق ومع النص ككل ومع مبدعه لنقف على أبعاد الظاهرة وخصائصها وقيمها الجمالية والفنية فى النص·

لقد حاول الباحث تجنب عيوب المنهج الإحصائى من حيث إنه "يضفى على العمل الأدبى طابعا غريبا باستعماله لغة غير مفهومة أو على الأقل لغة غير أدبية " (٣) فضلا عن أن هذه الإحصاءات المجدولة لا تقودنا إلى تحليل العمل الأدبى وفهم أسرار قيمته الجمالية والفنية ، ولا إلى الدخول إلى أعماق النص ومبدعه ودوافعه وأسرار مؤثراته ، وكل هذا يعكس قصورا للمنهج الإحصائى عن مواجهة العمل الأدبى (٤) · ولذلك كان استخدامه عاملا معينا خلال مراحل البحث وليس عاملا رئيسا فيه وفى بغيته النهائية ·

وثمة سبب آخر هام رجح للباحث الأسلوبية منهجا للدرس ، ألا وهو أنها تكاد تكون المنهج النقدى الحديث ، الوحيد ، الذى ينطلق من جذور عربية أصيلة فى البلاغة والنقد ، وأنها — بشكل ما — تطور دينامى للبلاغة العربية القديمة يبعث فيها روحا جديدة ، قادرة على مواصلة طريق التعامل مع العمل الأدبى وكشف معطياته وأغواره ، بعد أن توقفت وتجمدت منذ زمن ، ولم تعد قادرة على الغوص فى أعماق بناء العمل ودلالاته ، وأعماق بواعث مبدعه بما يعكس قصورا فى كشف القيم الفنية

---

١ — المرجع السابق : ص

٢ — د · شكرى عياد : الاسلوبية الحديثة ، مجلة فصول ، م ، ٢٤ ، حـ١ ، يناير سنة ١٩٨١م ص١٢٩ ·

٣ — د · محمد عبد المطلب : بين البلاغة والاسلوبية ص

٤ — نفسه : ص ١٢٦ ·

والجمالية كاملا في النص المبدع. (١)

وقد بذل الدكتور محمد عبد المطلب جهدا لا يزال يواصله لوضع أسس أسلوبية عربية تستمد مقوماتها من البلاغة القديمة وتستعين بمبادئ علم اللغة الحديث ،وقد أفاد الباحث من كتابه البلاغة والأسلوبية إفادة كبيرة في توسم الطريق . وحاول التطبيق الأسلوبي على شعر ابن خفاجة في تطبيق مَرِنٍ فرضة زمن النص ، وطبيعة شخص مبدعه ، وخصوصيه بنائه ـ في ذاته ـ فكل هذا جعل للتناول صورة طبيعية مرنة تختلف عن حدود التطبيق الصارم.

فالذي استهدفه الباحث من هذا المنهج الأسلوبي هو كشف أسلوب الشاعر والأسس البارزة المميزة له . وخصائصه التي ينفرد بها في التعبير أو تصبح من لوازم الأداء الخاصة به والتي يعرف بها . والتي تكّون ـ في الوقت ذاته ـ أهم الخصائص اللغوية في نصه ـ وأهم القيم الجمالية والفنية في هذا النص.

فتوخي المنهج الذي ينطلق من النص ولغته بشكل موضوعي حيادي إلى حد كبير ، والذي ينطلق من أسس عربية أصيلة ـ في معظمها ـ والذي يمكنه الاتساع ولإفساح الطريق لتفسيرات من مناهج أخرى ـ نفسية واجتماعية ـ لتحلل نتائجة وتفسرها وتبرز دوافعها وآثارها الفنية.

وهذا المنهج ـ في الوقت ذاته ـ ينطلق من أسس محددة داخل النص ، ويرتكز عليها ،هي المقومات الرئيسية أو العناصر الرئيسية في الإبداع الشعري ،اللغة والموسيقى والصورة وينحّي جانبا عناصر أخرى كثيرة تميز الإبداع الفني (الشعر) ابن خفاجة ،أعدّ لها الباحث عدته ولكنها تتطلب أبحاثا أخرى.

ومن هذه العناصر الإبداعية في النص الخفاجي :

١ ـ طرائق البناء الفني لأغراض النص الخفاجي .
٢ ـ اختلاف المقدمات النصية ودلالته الإبداعية.
٣ ـ المضمون الشعري وتطوره في النص الخفاجي دراسة في البناء المعنوي للإبداع
٤ ـ تميز الموضوع الشعري والبراعة فيه والارتكاز عليه ، عنصرا إبداعيا ،وبخاصة موضوع "الطبيعة".

هذا فضلا عن عدة عناصر أخرى يمكن أن تدرس في خلال الموضوعات السابقة ، أو منفصلة ،من مثل :

ـ البيت الشعري الأول (مطالع القصائد) وغرابتها .

---

١ ـ المرجع السابق صـ

ـ حسن التخلص بين الأغراض داخل النص.
ـ محاور القصيدة المدحية وصفات المدح فيها .
ـ بناء قصيدة المدح عنده و النهاية الطلبية المتواترة .
ـ القصة الشعرية عند ابن خفاجة أو الشعر القصصي وعناصره عنده
(فإن تشابهت قصته الخمرية مع قصص أبي نواس بعناصرها الدقيقة الحوار وتصوير الأشخاص والأحداث وتصوير الجوانب النفسية والانفعالية التي تعترى أبطالها) (١)
فالخفاجي صنع قصصا أخرى صور فيها ذئبا هجم عليه ليلا وقصة أخرى وقع فيها فريسة لأحد السباع وغير هذا من قصص . تضيف جديدا إلى إبداعه موضوعا وسعة تخيل ودقة أوصاف.
ـ التأمل الفلسفي ـ المنصوص في شعر ابن خفاجة .
ـ ابن خفاجة وفكرة الموت في قصائده .

واختيار شعر ابن خفاجة خاصة ، ودرس عناصر إبداعه ، اختيار له دواعيه ، فابن خفاجة أحد كبار شعراء الأندلس الذين لم يدرس نصهم الشعري كاملا دراسة فنية مستقصية على أسس موضوعية ،

ولم تنفرد دراسة بهذا الموضوع . في مصر حتى الآن ـ على حد علم الباحث ـ .

ويزعم الباحث أن موضوعه أول موضوع سجل عن ابن خفاجة في مصر لدراسة أكاديمية فله سبق الريادة في درس ابن خفاجة عامة ، ودرس شعره فنيا على وجه خاص.

فمنذ حقق أستاذنا المرحوم سيد غازي ديوانه ، وكتب رسالته حول شعره باللغة الأسبانية ـ في مدريد ـ ولا تزال هناك دون ترجمة عربية ، لم يلتفت أحد إلى ابن خفاجة . وجاء تناوله أو بعض قصائده وفنه في درس سريع خلال كتب الأدب أو تاريخ الأدب التي تناولت عصره .

في كتب للأساتذة ، شوقي ضيف (٢) وإحسان عباس (٣) والطاهر أحمد مكي (٤) في ثنايا الكتابة ، وهي مباحث ـ على أهميتها البالغة ودقتها الكاشفة المنيرة ، لا تكفي لدرس ابن خفاجة ، أو للدرس الفني المحلل لعناصر الإبداع في نصه الشعري .

وفي خارج مصر كتب الدكتور محمد رضوان الداية في دمشق كتيبا ترجم فيه لابن خفاجة وهي دراسة تدور حول الشاعر في بيئته وزمانه ، وتتلمس جوانب من شعره ونثره وتقدم نبذة عن الشاعر

---

١ ـ راجع ص ٤٨ وما بعدها من البحث .
٢ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ص ١٣٥ وما بعدها.
٣ ـ تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة ، بيروت سنة ١٩٧٨ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ وعدة مواضع أخرى .
٤ ـ دراسات أدبية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٨٠ ص ٢٧٨ وما بعدها وص ٢٠٢ وما بعدها .

وعصره ، ولمحات من فنه وأدبه . وقد أوما سيادته أن دراسته مقدمة متواضعة لدراسة شاملة واسعة .[1]

وكتب عبد الرحمن جبير كتيبا بعنوان ابن خفاجة الأندلسيّ وترجم فيه لابن خفاجة وعصره وحياته حينما طلب منه أن يترجم لابن خفاجة ويدرسه ، كما يقول فى تصديره (٢)

وهناك دراسة طيبة قام بها الباحث حمدان حجاجى فى الجزائر ، تناولت حياة ابن خفاجة وآثاره ، تعرضت بالتفصيل لابن خفاجة وحياته وعصره ، وأغراضه الشعرية ، ثم عرض فى الباب الأخير لفن ابن خفاجة.(٣)

ورغم أن الدراسة الأخيرة دراسة أكاديمية متخصصة متعمقة أفادت الباحث ، إلا أنها تشارك الكتيبين السابقين فى اختلاف توجهها الدرسى عن توجه هذا البحث . فثلا تتها ينصب على ترجمة ابن خفاجة والتعرف على عصره فى كل أحواله ، ثم يعرض على عجل لبعض فنه الشعرى .

من هنا كان تصويب الباحث تجاه شعر ابن خفاجة مباشرة ليس للدرس والتحليل الشاملين ، وإنما استقصاء لأهم العناصر الإبداعية التى تجعل منه نصا متميزا ، له خصائصه الفنية والجمالية الخاصه به ، ولصاحبه طرائقه الخاصة فى التعامل مع هذه العناصر بحيث تتفعل بالتجربة وتتفعل التجربة بها ، وبحيث تتعاون وتتكامل فيما بينها لتبرز سياقا خفاجيا خاصا وأسلوبا خاصا يميز المبدع ونصه الشعرى .

١ــ وهو من منشورات دار قتيبة بدمشق سنة ١٩٧٢ وهو أول كتيب فى سلسلة " الذخائر " هناك وقد رجع الباحث إليه فى طبعته الثانية سنه ١٩٨٢ م ويقع فيما يقارب المائة والخمسين من الصفحات من القطع الصغير . عرض فيه الدكتور الداية لعصر ابن خفاجة ــ الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية ــ ثم لحياة أبن خفاجة ــ النشأة والشخصية والوفاة . ثم لأغراض شعره ، المدح والوصف وشعر الحنين والغزل والعتاب والرثاء والزهد وأغراض أخرى . ثم عرض لنثر أبن خفاجة وأختتمه بنظرة فنية سريعة حول شعره ونماذج مختارة من مقطوعاته شعرا ونثرا .

٢ــ والكتيب لا يعد وترجمة أبن خفاجة وعصره وحياته ، ثم مرور سريع مجمل على بعض صوره وبعض موسيقاه . فى خمس ورقات ــ ثم عرض سريع لموضوعات شعره ، المديح والرثاء والحماسة والوصف والغزل والخمر ثم عرض لمراحل حياة أبن خفاجة ولموضوع وصف الطبيعة عنده . ومقارنة سريعة بينه وبين بعض الشعراء ثم عرض نماذج من مقطعاته الشعرية .

ويقع الكتيب فيما يقارب المائة والستين من الصفحات من القطع المتوسط وهو من منشوراة دار الآفاق الجديدة ــ بيروت سنه ١٩٨٠م

٣ــ عنوان الكتاب : حياة وآثار الشاعر الأندلسى أبن خفاجة وهو من مطبوعات الشركة الوطنية بالجزائر سنة ١٩٧٤ نال به الباحث درجة الماجستير .

لقد تميز شعر ابن خفاجة ، وعرف له قراءه هذه الخصوصية فى الأداء والملامح الجمالية والفنية التى تكمن فى بنائه ودلالته وصياغته وموسيقاه . وهو نموذج فرد فى اسلوبه الخاص بين نصوص الشعر العربى موضوعا وفنا .

ومع ذلك كان حظ النص الشعرى لابن خفاجة من الدرس قليلا ، أو ربما منعدما ، ولم يطرق أحد بابه ليبرز خصائصه الأسلوبية والفنية والجمالية أو عناصر التميز فيه .

وكل الذى ورد فى الكتب القديمة تعليقات مقتضبة سريعة حول مقطعة جميلة فى الوصف أو فى الغزل (١) أو إسهابات انطباعية تشيد بابن خفاجة — خلال الترجمة له — شاعرا بستانيا جنانا ، محبا للطبيعة .

وفى الكتب الحديثة — كما سبق مباحث سريعة أو دراسات ليس فن ابن خفاجة موضوعها الرئيس .

والتزاما من الباحث بدقة التطبيق والتثبت من الظاهرة ، فقد اعتمد على الإحصاءات الدقيقة لكل الظواهر اللغوية والموسيقية داخل النص الخفاجى ، ووقف بالتحليل المستفيض على أثرها داخل التجربة فيه . فصنع معجما لألفاظه ، رصد الألفاظ والصيغ المتكررة بنسب عالية داخل الديوان ، وصنع كذلك إحصاء كاملا للانماط الموسيقية التى اعتمد عليها الشاعر لتشكيل تنويعاته الموسيقية داخل تجاربه ، وقد آثر الباحث عدم الحاق الاحصاءات بالبحث ، مكتفيا ببعضها ، وذكر مواضعها الاخرى داخل النص الخفاجى .

وفى درس العنصر التصويرى لم يعول الباحث كثيرا على إحصاء صور التشبيه والاستعارة ورصد أعدادها ومواضعها ، فهى من الكثرة والشيوع بمكان ، وقد أفاض الباحث فى تعامله مع الظواهر اللغوية للنص ، فرأى أن يبتعد — قليلا — عن درس المجاز اللغوى فى الصور البيانية ، متناولا الصورة الشعرية بنظرة أكثر شمولية ، ترصد أنماطها المتعددة والتحليل عناصرها المكونة ، وتبرز قيمتها الجمالية والفنية ، داخل النص .

أما بالنسبة لتقسيم البحث ، فقد اشتمل على مدخل ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة ، وقد تكون كل باب من فصلين ، تناول كل فصل مبحثين فى الجانب الذى يعالجه .

تناول الباحث فى المدخل مبحثين ، يعرض الأول للإبداع الشعرى ، تعريفا بالإبداع لغة والإبداع فى مجال الشعر ، وعناصر هذا الإبداع ، وكيف تتوافق أو تختلف مع عناصر التشكيل الشعرى ، أو المقومات الشعرية الرئيسية ، ثم أشار الباحث إلى العمل الأدبى رسالة فنية يوجهها المبدع إلى المتلقى ، تحمل دلالات خاصة ، وتهدف إلى تأثيرات وجدانية خاصة لدى المتلقى ، بفضل مزيجها المحكم التناسب بين مقوماتها وعناصر إبداعها وأدوات هذه العناصر ، بحيث يكون هذا المزيج النسجى سمة خاصة بالرسالة وبصاحبها ، دالة عليه مميزة له بين المبدعين ، فهى أسلوبه

الخـــاص فـــى طريقـــة الاداء ثـــم عـــرضـــت لعناصر العملية الإبداعية، موضحا قيمة الإطار الشعرى والإطار الثقافى للمبدع ، وأثرها فى طبيعة رسالته الفنية ، وكذا لدور الخيال فى العملية الإبداعية ، ووظيفته لحظة الإبداع ، حيث تتزاحم الرؤى والصور لحظة الإلهام ، ويتعامل معها الخيال متخيرا تشكيلاته الخاصة مستعينا بمخزون الذاكرة من معطيات . وأخيرا عرضت لعلاقة الإبداع بالأصالة الفنية للشاعر ، وأوضحت أن أصالة الشاعر لا تنقص أو تهتز أو تنعدم بين إطاريه الشعرى والثقافى ، فهى من ناحية لاتوجد إلّا بالنسبة لجمهور أو مجتمع أو بيئة فنية (مستقبِلة) وهى من ناحية أخرى تكمن فى قدرة الشاعر على إخضاع عناصر فنه ، ومادته (ذات الأطر الاجتماعية والثقافية والبيئية الممتدة)، لذاته الخاصة ، وشخصيته المبدعة ، فيَخرُجُ فنُه أصيلا يحمل طابَعَه ويدل عليـــــه .

وفى المبحث الثانى من المدخل عرض الباحث "بإيجاز" لابن خفاجة شاعر الأندلس ، ترجمتـــه وحياته الخاصة ، والبيئة التى عاش فيها ، ثم مكانته الشعرية فى عصره ، كما حاول التعرف علـــى أهم مقومات نفسيته وشخصيته ، معولا على تكوين نفسى خاص للشاعر، كان له أثره العميق فى نتاجـه الشعرى ، وطبيعة نصه ، وقد تمحور هذا التكوين حول فكرة " الموت " والاحساس الدفين به ، خوفا منه ، وترقبا له ، وهربا منه ، ولذا برزت فى شعره دلالات الخوف من الزمن (سلاح الموت) والخوف من الظلام بكل أشكاله، وألح سلوكه فى المرحلة الأولى من حياته على " قتل " هذا الزمن ، وكذا موضوعات شعره . كما ألحت صوره على دلالات الرغبة النفسية الجامحة فى قتل الظلام وقهره ، بانتصار النور والضياء فى الفجر والصباح والنهار . كما برزت فى شخصيته جوانبها الفلسفية المتأملة والتـــى تنطلق من هذا العمق النفسى . وكذا ملامحها الأخلاقية المتعددة ، بما تحمل من سمات الأصالة والانطباع ورقة القلب والشمائل ، والخبرة العميقة بمعادن الناس وبواطن الأمور ، وماتحمل من سمات الإباء والترفع ، والالتزام المحدد فى الحياة بمبادئ يحاول ألّا يحيد عنها .

ثم عرضت لمرحلتى حياته ، مرحلة الصبى والشباب ومرحلة الرجولة والشيب ، وأهم الملامح السلوكية والفنية لهما فى حياته وشعره .

أما الباب الأول فيعرض لأول عناصر الإبداع فى شعر ابن خفاجة ، العنصر اللغوى . وقد قدمت له بتوطئة تبرز دور اللغة مادة أساسية للنص الأدبى ، تحمل كل خصائصه الإبداعية الأخرى موسيقا وصورة ، وتنقل التجربة وتشكل جسدها الذى يراها فيه المتلقى . ثم عرضتُ لمصادر الثروة اللفظية عند ابن خفاجة ، راصدا أهم ارتكازاته اللغوية على النص القرآنى ، والنص الشعرى فى إشارات سريعة إلى مواضعها فى الديوان ، ثم رصدت دور ألفاظ الطبيعة فى تكوين مفردات معجمه الشعرى الخاص.

وفى الفصل الأول تناولت أهم الظواهر المميزة لأسلوب الشاعر فى مستوى الألفاظ المفردة ، وعرضت فى مبحثه الأول لعدد من الصيغ اللغوية التى يمثل استخدامها سمة أسلوبية مميزة لطرائق التعبير فى نصه ، ومرتكزا دلاليا وصوتيا يثرى التجربة ويعمق إيحاءاتها وأبعادها ، متخيرا صيغ المبالغة

وصيغ الصفة المشبهة للدلالة على ذلك.

وفى المبحث الثانى من هذا الفصل ، عرضت لظاهرتى استخدام الفعل المضعّف ، وتكرار المادة اللغوية داخل البيت الشعرى ،وأبرزت كيف اعتمد الشاعر عليها — ألفاظا مفردة- ، فى إثراء تجربته وتكثيف أبعادها — تجسيدا ومبالغة — عن طريق هاتين الظاهرتين فى الاستخدام اللفظى .

أما الفصل الثانى فى درس العنصر اللغوى ،فخصصته لمستوى التركيب والعبارة ،وتناولت فى مبحثه الأول عددا من البناءات اللغوية ذات الأثر الدلالى البالغ فى النص ،مثل البناءات ،المتوازى ، والراجع ، المتقابل ،والمنفرج وقمت بتحليل عدد كبير من النصوص تحليلا لغويا ودلاليا يبرز دور هذه البناءات فى تجاربها . كما أبرزت كيف شكلت هذه البناءات سمة مميزة لأسلوب الشاعر يعتمد عليها ويدرك أثرها الجمالى والفنى فى نصه .

وفى المبحث الثانى عرضت لأهم الأساليب اللغوية التى اعتمد عليها الشاعر،لتكثيف الإيحاء داخل تجاربه ،من خلال أسلوب الاستفهام ،وأسلوب القسم ،وأسلوب القصر ، وأبرزت من خلال تحليل النصوص أثر كل أسلوب فى تجربته ، ونهج الشاعر فى استخدامه ،وكيف استطاع تجسيد مشاعره وانفعالاته الخاصة من خلاله .

وفى الباب الثانى عرض الباحث للعنصر الإبداعى الثانى فى النص الخفاجى ،العنصر الموسيقى ليبرز ملامح التميز الخاصة بالشاعر ونصه ، فى أنماطه الموسيقية الخاصة .

فى الفصل الأول عرض لأوزانه وقوافيه فى مبحثين،تناول الأول الأوزان العروضية فى شعره ليبرز نسب الشيوع فى كل وزن ،وعلاقته بالموضوعات الشعرية التى صيغت فى قالبه ،أو بعدد الأبيات الشعرية التى نظمت تجربته ،وقد أبرز البحث عدم ارتباط الوزن العروضى عند ابن خفاجة بموضوع محدد،أو بعدد محدد من الابيات وكيف نبعت اختيارات العروضية من أنفعالاته وتوتراته النفسية الداخلية لحظة الابداع ،امتدادا لانطباعه فى قول الشعر من ناحية ، واثباتا لتحلل الشاعر من كل القيود المسبقة قبل الابداع ، وأنه انما يستجيب لمؤثرات شديدة الخصوصية ، تنبع من طبيعة التجربة الشعرية ذاتها ومدى معايشته لها فى كل اختياراته الابداعية ، لغة وموسيقا وصورة .

وفى المبحث الثانى من هذا الفصل ،عرض الباحث للقوافى فى النص الخفاجى معرفا بالقافية ، وراصدا لحروف الروى عند الشاعر ،والعلاقة الصوتية والدلالية لصوت الروى بالأصوات المجاورة له فى البيت ولأثره (ترددا صوتيا منتظما مع أمواج النغم فى الأبيات) فى التجربة ككل . وقد عرضت لعلاقة صوت الروى بموضوع التجربة،وكيف كان عند ابن خفاجة اختيارا آخر ،واعيا لا يرتبط بموضوع النص أو معانيه ، بقدر ارتباطه بالإحساس العام الذى يعترى الشاعر لحظة الإبداع ،كل هذا من خلال عرض القوافى المطلقة والقوافى المقيدة عند الشاعر ولزومه ما لا يلزم فى قوافيه .

أما الفصل الثانى للعنصر الموسيقى،فقد عرضت فيه للتشكيلات الموسيقية الداخلية فى شعره

ابن خفاجة ففى المبحث الأول منه عرضت لموسيقا الأبيات والجمل ،راصدا كل الأنماط الموسيقية التى حشدها الشاعر داخل نصه ،على المستوى الرأسى للأبيات المتعددة ، وعلى المستوى الأفقى داخل البيت الواحد ،وقد حصر الباحث كمًّا كبيراً من الأنماط الموسيقية المتعددة ،التى كرر الشاعر فيها القوالب الصوتية بين الأبيات المتتالية،وكمًّا كبيراً من التقسيمات الصوتية التى صنعها بين شطرى البيت الواحد،أو التى نوّع بها موسيقا البيت كالتقسيم الرباعى والثلاثى للبيت أو التقسيم الثنائى داخل الشطر الواحد ، وكذا تلك الموسيقا التى صنعتها الصياغة الخفاجية داخل الأبيات مثل ،، موسيقى الإضافة والصفات والعطف وغيرها . وقد رصد الباحث اهتمام ابن خفاجة بالعنصر الموسيقى داخل أبياته ،ركيزة مؤثرة فى تعميق التجربة والإحساس بها لدى المتلقى،وإدراكه لقيمتها الجمالية والفنية فى شعره وتركيزه على التدفق الصوتى المتجانس فى تجاربه ،مسجلا من خلال التحليل النصى الفروق الدقيقة للأثر الموسيقى بين التجارب المختلفة فى المدح والرثاء — على سبيل المثال — وفى غيرها كذلك .

وفى المبحث الثانى لهذه الأنماط النغمية داخل الأبيات عرض الباحث ،لموسيقا الألفاظ والحروف داخل الأبيات ،وقد كان التكرار الصوتى أهم ركائز الشاعر فى العنصر الموسيقى ،تكرارا لأصوات الألفاظ بتمامها حينا ، ومع إضافات (لواصق) حينا آخر ، أو تكرار اللفظ ومشتقاته من ناحية ثالثة . كما صنع الباحث حصرا دقيقا لظاهرة التكرار الصوتى فى موسيقى البديع من خلال الجناس بأنواعه (باعتباره تكرارا صوتيا تاما حينا وناقصا أحيانا) ومن خلال رد الأعجاز على الصدور على ما تصنع أنواعه البلاغية المتعددة (والتى وردت كاملة فى النص الخفاجى)من تعدد وتنوع فى الشكل الصوتى للتكرار،ثم رصد الباحث نماذج أخرى للتكرار الصوتى داخل البيت كاملا وداخل اللفظة الواحدة،وعبر اللفظتين المتجاورتين ،على تنوع أشكال هذا النمط الموسيقى الأخير ، معبراً عن مدى اهتمام الشاعر بالتجانس الصوتى داخل شعره ، وإدراكه لأهمية التجانس التجاورى للأصوات فى التأثير على المتلقى، وفى نقل إحساسات ومشاعر خاصة بالتجربة تعمقها فى نفسه ،وبخاصة عندما ينبع هذا التجانس من المشاعر والانفعالات التى تفرضها التجربة لحظة الإبداع — كما فى تجارب الرثاء والغزل عند الشاعر — وحين يبتعد عن كونها زخرفا صوتيا مستهدفا كما فى بعض تجارب المدح عنده .

وبذا جاء دور العنصر الإبداعى الثالث داخل النص الخفاجى ،العنصر التصويرى،الذى تناوله الباب الثالث وقد استهدف الباحث الابتعاد عن التناول اللغوى لبنية الصور البيانية ،فجاء الباب فى فصلين عرض الفصل الأول للصورة فى شعر ابن خفاجة متناولا مصادرها فى المبحث الأول منه ومتناولا الصورة بين التقليد والتجديد فى المبحث الثانى .

أما مصادر الصورة "المادة الاساسية "التى شكلت صوره ،فقد تنوعت وتعددت عنده ،استلهاما للنص القرآنى ومعطياته فى التصوير من جهة ،وللشعر القديم وروافده المتعددة من جهة ثانية ، ولعناصر الطبيعة (التراثية والمعاصرة) من جهة ثالثة .

وفى المبحث الثانى لم يغفل الباحث فى عرض الصور التقليدية عند الشاعر فقد ورد الكثير منها فى المبحث الأول ، ثم عرض للصور التى حاول الشاعر أن يجددها بإضافات وامضة منه ، يلعب الخيال فيها دورا هاما ، ويعمد الشاعر فيها الى هذا التجديد .

ومن الجدير أن يذكر الباحث عدم رصده لكل الصور المجددة فى شعر ابن خفاجة ، نظرا لكثرتها من جهة ولصعوبة رصد الملامح التجديدية فى أكثرها ـ مقارنة بمثيلاتها ـ من ناحية أخرى . وعلى أية حال قد عرض المبحث لتحليلات شبة كاملة لعناصر التصوير عند الشاعر مبرزا دلالاتها وأثرها فى رسم الصورة ، مثل عناصر الخيال والحركة والزمان والمكان واللون وغيرها فضلا عن عناصر التكوين الرئيسية فى التصوير والتى تنطلق من العنصر اللغوى والعنصر البيانى والعنصر الموسيقى داخلها . وأظهر أثرها فى رسم أبعاد الصورة وإيحاءاتها وظلالها المقصودة . وانطلاقا من تصور أن الصورة البيانية هى صورة جزئية تعتمد التشكيل اللغوى المجازى وتمثل أصغر وحدات التكوين داخل اللوحة ـ الكل ـ وأنها لا تقوم " بذاتها " منعزلة عن اللوحة لتمثل قيمة فنية أو جمالية فقد حاول الباحث فى الفصل الثانى تتبع أنماط الصور الخفاجية ، باعتبارها صياغة كلية متكاملة ، يلعب فيها الخيال دورا رئيسيا .

وقسمها إلى صور بيانية جزئية ، وصور قصيرة خاطفة وصور ممتدة وعرض لها فى المبحث الأول من هذا الفصل وقد فرق بين الصورة الممتدة التى تتمحور حول عنصر واحد تصوره وتنمو ـ متوالدة من داخلها ، كصورة شجرة أو زهرة أو تصوير الحدث الواحد فى قصة كاملة تتمحور حوله وتصور كل جوانحه متنامية من داخل الحدث ذاته وهذه الصورة النامية من داخلها ليست كثيرة فى شعره .

وبين الصورة الممتدة التى تستمد روافدها التصويرية من خارجها كوصف أيام الأنس ومجالس الشراب وغيرها . والتى يجنح الشاعر فيها إلى الاستعانة بصور كاملة للخمر والندامى والسقاة وغير هذا . فهذه العناصر ـ وإن كانت تمثل جزءا من صورة يوم الأنس ـ إلا أنها تقوم صورا قائمة بذاتها داخل لوحته الكبرى حينئذ . وتعتمد منه على انتقالات بصرية تلتقط المشاهد أو تتمثلها متراصة متجاورة لتكون المشهد الكلى .

وفى المبحث الثانى عرض الباحث للصورة الممتدة متعددة الصور فى لوحات قائمة بذاتها ، أو فى مقدمات القصائد وقد وجد أن عددا من قصائد المدح يمثل صورة كاملة كبيرة ممتدة يجمعها خيال فنى واحد ، وتتبع من دفق شعورى واحد يلون كل صورها الداخلية (الجزئية ـ الخاطفة) ، فأشار الى عدد منها ووضح هذا الملمح فيها كما قام بتحليل واحدة من هذه القصائد التى تتمثل فيها فكرة النص الصورة وأبرز دور الخيال الواحد المسيطر على كل صورها ، ودور الشعور والاحساس التى ينمو ساريا فيها منذ بدايتها وحتى النهاية .

وفى تحليلات نصية تطبيقية أثبت الباحث اعتماد الشاعر فى كل صورة على ركائز محددة وثابتة تثرى صوره كلها وتجعل منها أمثلة تطبيقية واضحة على عمق التكامل المتفاعل بين كل العناصر الابداعية داخل النص الشعرى وتقف دليلا على تمكن الشاعر من هذه العناصر ، كل على حدة من جهة ، ومجتمعة ومتعاونة متآزرة على إثراء التجربة الشعرية من جهة أخرى ·

وفى الخاتمة عرض الباحث لأهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة ·

هكذا كانت عناصر الإبداع عند ابن خفاجة وتلك كانت الخطة المتبعة لدراستها ، وقد حاولت قدر المستطاع الوفاء بحق كل عنصر منها فى الدرس من خلال أهم مظاهره وخصائصه التى تميزه من جهه وتميز أسلوب الشاعر من جهة أخرى منطلقا من أسس موضوعية فى المقام الأول مجنحا فى الحكم صوب التذوق والأثر المنعكس من طول القراءة وعمق التعامل مع النص فى المقام الثانى ·

وبعد فلابد من تلمس المعذرة من أساتذتى أعضاء اللجنة الموقرة عما شاب هذه الدراسة من نقص أو خلل، فما يزال الباحث متعلما وما يزال الدرس النقدى التطبيقى للعمل الأدبى شائكا، متطلبا فهما دقيقا للمناهج الحديثة ودربة إبداعية واعية طويلة مع أغوار التجارب الشعرية · وحسبى محاولة الاقتراب من مفاتيح النص الخفاجى وأسلوب صاحبه ·

وفى الختام أتقدم بصادق الشكر والعرفان لأستاذى الجليل ، الأستاذ الدكتور / محمد زغلول سلّام الذى شرفت واحدا من أبناء مدرسته منذ عهد بعيد، استمر حتى شرفت هذه الدراسة بإشرافه والذى كان لى — دوما — أبا وأستاذا كريما ، بعطائه العلمى ووقته ، وسعة صدره ، حرصا على عدم الجنوح والزلل فى مزالق البحث، فلسيادته منى أسمى آيات العرفان والتقدير راجيا أن أكون قد اقتربت من رؤيته الإبداعية فى التعامل مع النص الشعرى وجزاه الله عنى وعن الأجيال تربت على علمه خير الجزاء ،

والله من وراء القصد ، وهو يهدى السبيل ·